المفاضلة بين الشعراء

لامراء انهُ ما تعدَّد اهل صناعةٍ ما او اهل علمٍ ما في عصرٍ من الاعصار او امةٍ من الامم حتى لهج الناس بامر الموازنة بينهم وحمل لواءَ كلٍّ منهم جماعة وصار كل فريق يقدّم صاحبهُ ويدّعي لهُ الافضليَّة على سائر اهل فنهِ او صناعتهِ فاشتدَّ التنازع بينهم واتَّسعت مسافة الخلاف حتى خفضوا من خفضوا واعلوا من اعلوا ذاهبين في ذلك مذاهب اغراضهم او مذاهب اذواقهم ولكن قلَّ بينهم من بنوا احكامهم على بيانٍ ثبت اذا عصفت بها الحجج وهبَّ عليها زعازع [1] البحث واكثر ما ترى ذلك متى تولَّى المفاضلة من لم يستنيروا بنور العلم او من هم عبيد الاغراض واسرى الاهواء . فهنالك يعلو الصياح ويرتفع ضجيج الجدال ويخيِّم غبار الاهواء على البصائر حتى ما ترى للفضول حسنةً ولا للفاضل ميئةً . وقد يتمادى كلٌّ في اطراء صاحبهِ والغضِّ من صاحب مجادلهِ الى حدّ ان يقول المتعصر لهُ انصروا فقد البستموني ثوبًا اطول من قامتي واعرض من جسمي . سنَّة الدهر في مدح الاغرار واهل المآرب

ولما كان أدباء العصر بل العوامُّ من اهلهِ كثيرًا ما يخوضون لجج هذا البحث كما خاض الذين من قبلهم عنَّ لي ان اتَّجه صوبهُ فانشأت هذه المقالة ابيِّن بها كيف يفضل الشاعرُ الشاعرَ ذاكرًا وجوه المفاضلة وفاتحًا ابواب الموازنة آملاً انها ترشد من ضلال . وتهدي الى سداد . حتى اذا حكم ذو علمٍ ان زيدًا اشعر من عمرو لا يكتفي بنظرةٍ اجمالية بل يطيل نظرهُ في قصائد الاثنين ثم يحكم ايهما اشعر ولكن بادلَّة لا يبطلها بحث محقق ولا يجرحها تنقيب مدقق

تمهيد

قبل الافاضة في بيان وجوه المفاضلة اقول لا بدَّ لمن شاءَ ان يعرف ايَّ الشعراء اشعر ان ترسم في فكرهِ حقيقة الشعر كما ترتسم فيهِ صور الكائنات المنظورة فمن ارتسم في لوح ذهنهِ صورة الفهد والذئب والسبع مثلاً فايَّان رأى الواحد منها او رآها كلها عرفها بمقابلة صورها يوم تمرُّ بهِ بما كان قد انطبع لها من الصور على صحيفة ذاكرتهِ

اما الشعر فهو خيالات فكرية تلبس البرود البهيَّة حتى تكاد تبرز بها اجمل من الغادة الهيفاء في افخر ملابس الثراء فهو يجسم المعنويات ويمثِّل الحالات ويصوِّر الموصوفات فاذا

(١) الزعازع رياح شديدة الهبوب تقتلع الاشياء

كقول الشاعر وصف بستان كدت ترى الوان زهره وخضرة شجره ولدونة غصونه وشهي ثماره حتى لتظنك واقفاً فوق ذلك البستان تسمع تغريد اطياره وتتنسم نفحات ازهاره وتخال الشاعر قد صوّر البستان في ابيات زهريته على حدّ قوله

ما زالتِ الاوراقُ توجد في الربا ... ضٍ وقد أراني الروضَ في الاوراقِ

ومن هذا الباب قول ابن الوردي

واصاغ الوانٍ واحداق نرجسٍ ... وفاحَ ابتْ اجفانها ان تغمضا
وقامات اغصانٍ رشاقٌ تعانقت ... فنثورُ منظوم الازاهر قد أمَا
وشقّ الشقيقُ عنهُ ثوباً كشا كلٍ ... عليها ثيابٌ للدما ليس تنقضي
ومنها على جانبيهِ الدوحُ لا بل عرائسٌ ... تروم لثمر الدرّ ان تتفضا

ولصفيّ الدين الحلي زهرية لطيفة منها

وردَ الربيعُ فرحباً بوُروده ... وبنور بهجتهِ ونَوْرِ ورودهِ
وبحسن منظرهِ وطيب نسيمهِ ... وأليقِ ملبسهِ وشي بروده

ولابي فراس الحمداني

ويومٍ جلا فيهِ الربيع رياضهُ ... بانواع حلي فوق اثوابهِ الخضرِ
كأن ذيولَ الجلنارِ مطلةً ... فضولُ ذيول الغانيات من الأزرِ[1]

ولابن الساعاتي

والطلُّ في سلك الغصون كلؤلؤ ... رطبٍ يصافحهُ النسيم فيسقطُ
والطير تقرأ والغديرُ صحيفةٌ ... والريح تكتبُ والغمام يُنقطُ

واذا وصفت معركة فكأنما اراك الجيشين بين الكرّ والفرّ والهجوم والدفاع والسيوف مسلولة والدماء متفجرة وامتعك صهيل الخيل وغمغمة[2] الابطال ودويّ الرصاص ومثّل لعينيك المدافع ترسل قذائف المنايا تحطم الاعضاء وتخطف الارواح وذلك كقول ابن هانيء من قصيدة

فُتحت لكم ريحُ الجلاد بنصرٍ ... وامدّكم فلقُ الصباح المسفرِ
وجنيتمُ ثمرَ الوقائع يانعاً ... بالنصر من ورق الحديد الاخضرِ

ومنها ومشوا على قطع النفوس كأنما ... تمشي سنابك خيلهم في عبهرِ

وللقاضي ابن عطية في وصف معركة ابيات تمثل الجيشين يتقاتلان فمن يقرأها او يسمعها منشدةً يخيّل اليهِ انهُ على ربوةٍ تطلّ على حومة الوغى وهي

(١) الجلنار زهر الرمان (٢) الغمغمة اصوات الابطال عند القتال

كم صدمةٍ لك فيهم مشهورةٍ غصَّ العراقُ بذكرها والشام
في مأزقٍ (١) فيهِ الاسنَّة والظُّبى برقٌ ونقع (٢) العاديات غمامُ
والضربُ قد صبغَ النصولَ كأنما يجري على ماء الحديدِ ضرامُ
والطعنُ يبتعثُ النجيع (٣) كأنما تنشقُّ عن زهر الشقيقِ كمامُ (٤)

وان وصف ظالماً يثنك بمظلوم مثل لك سبعاً ضارياً يفترس شاة حمقاء. وان استجار اراك ضعيفاً يصرعهُ قويٌّ او عصفوراً انقضَّ عليهِ نسر او ثعلباً وثب عليهِ اسد فيثير بذلك فجدتك ويستصرخ حميتك . ومن احسن ما ورد من ذلك قول الشاعر

اذا كان ذئبُ الغاب يرعى نعاجهُ كتبتُ على اعتافها الدائمُ اللهُ

فلا اوقع في النفس من هذا البيت في بابهِ فهو يريك الظالم ذئباً والمظلوم نعجةً ولو ان رافائيل المصوّر الشهير الذي يتعالى العظماء في اشتراء ما ترك من الصور البديعة لذي صاحب هذا البيت لاعترف لهُ بمزيَّة التقدم في التمثيل

ومن جيّد ما قيل في الاستجارة والاستجداء هذان البيتان المشهوران

أيقدرني الزمانُ وانت فيهِ وتأكلني الكلابُ وانت ليثُ
ويروى من حياضك كل صادٍ واعطش في حماك وانت غيثُ

وان استعطفك صوّر لك حالةً تثير كامن الرحمة وتدعو الى الشفقة دعوةً تلين القلوب الصلدة واراك نفسهُ على حاجةٍ لا تستريح النفس الشريفة الاَّ بسدّها وذلك كما قال الخطيئة

ماذا تقولُ لافراخٍ بذي مرخٍ حُمرِ الحواصل لا ماءٌ ولا شجرُ
أُلقيتَ كاسبهم في قعر مظلمةٍ فاغفر عليك سلام الله يا عمرُ

وان وصف المحاسن استحسنت وصفهُ على عروس شعرهِ من ذلك قول ابن معتوق

خفرت بسيف اللحظ ذمة مغفري وفرتْ بموج القدّ درع تصبري
وجلت لنا من تحت مسكة خالها كافورَ فجر شقَّ ليل العنبرِ
وغدت تذبُّ عن الرضاب لحاظها فحمت علينا الحورُ وردَ الكوثرِ
ودنت الى فمها أراقم فرعها فتكفلت بحفاظ كنز الجوهرِ
يا حامل السيف الصحيح اذا رنت اياك ضربة جفنها المتكسّرِ
وتوقَّ يا ربَّ القناة الطعن إن حملت عليك من الترام بأسمرِ

(١) المضيق وموضع الحرب (٢) الغبار (٣) الدم (٤) الكمام جمع الكم وهو غلاف الزهرة

الى ان يقول

فزعتْ فضرّست العقيقَ بلؤلؤه سكنت فرائدهُ غديرَ السكرِ
وتنهّدت جزعاً فأثّر كفُّها في صدرها فنظرتُ ما لم انظرِ
اقلام مرجانٍ كشبّ بعنبر بصحيفة البلور خمسة اسطرِ

ومن هذا الباب قولهُ من داليّةٍ لهُ

نبتت رياحينُ العذار يورّدو فكما زمرّدُها عقيقة خدّهِ
وبدا فلاح لنا الهلالُ بتاجهِ وسعى فمرّ بنا القضيبُ بِبُردهِ

الى ان يقول

وسطت على حرب الوغى معاشرُ ال اغصانِ فانتصرت بدولة قدّهِ

واذا مدح كما تمدوحهُ رداه تروق العين رؤيتهُ والبسهُ مجداً حاكت المآثر بردتهُ واذا هجا خيّل المهجوّ ملطخاً باقذار المثالب وذكر من نعلاتهِ ما هو اخبث رائحة من الجيف وكذا شأنهُ في سائر ابواب الشعر

ومن اقدر الشعراء على الوصف الشنفرى فقد وصف الذئاب الجائعة في لاميتهِ وصفاً بلغ من المطابقة للموصوف ما لا غاية بعدهُ فاذا قرأت ذلك الوصف فكأنك ابصرت تلك الذئاب بعينك من ذلك قولهُ

مهلهلةٌ (١) شيبٌ (٢) الوجوه كأنها قداحٌ (٣) بكفي ياسرٍ (٤) متقلقلُ
مهرّتةٌ (٥) فوهٌ (٦) كأنّ شدوقها شقوق العصيّ كالحاتٌ وبُسّلُ (٧)

وجوه المفاضلة بين الشعراء

لا مندوحة لمن يفاضل بين الشعراء من ان يراعي هذه الوجوه وهي (١) اشراق الديباجة ومتانة النسج و(٢) تمكّن القوافي و(٣) ابتكار المعاني وابتكار الاساليب و(٤) النظم في كل باب من ابواب الشعر و(٥) النظم على كل بحرٍ من بحوره و(٦) التخلّص من الجوازات الشعرية المكروهة و(٧) الاجادة في اسوار القصيدة وهي بيت المطلع وبيت التخلص وبيت الختام و(٨) طول القصيدة و(٩) التقارب في الطبقة كما بين جرير والاخطل والفرزدق والاّ أُغلق في وجههِ باب المفاضلة واصبح كمن يريد ان يثبت حقّاً لواحدٍ على آخر ولا دليل لهُ من ادلّة الاثبات

(١) رقيقة الظم (٢) جمع شيباء مأخوذ من شاب اذا ابيضّ (٣) السهام قبل ان تراش (٤) المقامر (٥) الواسعة الاشداق (٦) مفتوحة الفم (٧) كريهة المرأى

اما اشراق الديباجة ورشاقة العبارة ومواءاة الالفاظ للمعاني فشبيهٌ تعلق النفس من كل شيء بأجودهِ . ومعلوم ان الالفاظ حُلَل المعاني وشتان ما بين فاخر الثياب وخسيسها وجيدها ورديئها والا فاين الشعر من الحرير والخزف من الذهب

واما تمكن القوافي فيريك التحام اول البيت بآخرهِ وارتباط صدرهِ بعجزهِ ويقضي للشاعر بان الكلام طوع لسانهِ او قيلهِ اذا دعاهُ لبّاهُ ولا يدعو منهُ الا ما يراهُ الأجدر بالمقام كالبناء فانهُ يطلب من الحجارة ما هو على قدر الموضع الذي يريد ان يضعهُ فيهِ فان كان اكبر او اصغر ردّهُ لان الاكبر يضيق عنهُ المكان والاصغر لا يملأهُ

ولما ابتكار المعاني فناطقٌ بان لصاحبهِ فكرًا يقود الافكار وراءهُ وذهنًا مخصبًا تغتذي الاذهان من ثمارهِ فهو الغنيُّ الذي يجود على العقول بما يكشف من كنوز المعاني . ولا اعلم مزيّةً للعقل وراء هذه

واما ابتكار الاساليب فهو فضل منبتهُ صدق الحس وقوّة الخيال ورقة الفطنة وهو يقرب من فضل ابتكار المعاني . ألا وان المعنى الواحد الذي يتعاورهُ الشعراء يتفاوت وقعهُ في النفوس بتفاوت الصور والاساليب فقد تراهُ سمجًا نافرًا وقد تجدهُ غضًّا باردًا وقد يأتي في عبارة الواحد خرزًا وفي عبارة الآخر دُرًّا فمن أُوتي التفنن في لطف الاسلوب يُمدُّ ولا ريب في الطراز الاوّل

واما النظم في كل ابواب الشعر وهي المدح والهجاء والفخر والنسيب وما يتفرّع منها فهو قاضٍ لصاحبهِ بالفضل من الجانبين جانب اللفظ وجانب المعنى . وقريحة المتقدر على ذلك شبيهة بخزنٍ كبيرٍ يحوي كل صنفٍ من البضائع الثمينة وذلك غاية الغايات في الانشاء نظمًا ونثرًا

واما النظم على كل بحور العروض فيدلُّ على ان الناظم ملك مطاع الامر نافذ الكلمة في بحار مملكة الشعر كلها واما من ينظم على بعض الابحر واذا كلّف ان ينظم على غيرها رجع الى حالة المفزرم (١) كلما نظم بيتًا يتخطّهُ خشيةً ان يخرج عن ميزانهِ اما بنقصٍ او بزيادة فهو لا يتجاوز مقام الوزير الذي لا سلطة لهُ ولا حيث سلطةُ السلطان على ان هذا الوجه لا علاقة لهُ بجودة الشعر ورداءتهِ

واما التخلص من الجوازات الشعرية المكروهة فدليل سلطة مطلقة لشاعر في اللغة والعروض فاذا كانت اللفظة لا توافق الوزن الا بمخالفة قاعدة نحوية او صرفية جاء بغيرها ولم يتكلف عناء ولا مشقة فان محفوظهُ من مختار اللفظ كثير وكلهُ قائم لديهِ قيام العبيد بين ايدي اسيادهم

(١) المفزرم الجندي بقول الشعر كما جاء في الاغاني

ومطاوعة اللفظ للناظم مزية لا تنكر . واعلم ان لا عون على السلامة من الجوازات المستهجنة كاستنكاف الشاعر منها وعدّها دواعي يسيل صديدها على محيا شعره

على ان خول الشعراء قد لاذوا احياناً ببعض الجوازات ولم يبالوا وذلك انهم بما نالوا من رفعة القدر وعظمة الشان في النفوس صارت لهم إمارة على الكلام فيجدون مقصورهُ ويحركون ساكنهُ ويسكّنون متحركهُ ويؤنّثون المذكّر ويذكّرون المؤنّث وكان الاجدر بهم ان لا ينزلوا هذه المنازل السافلة ولاسيما وقياد الكلام بايديهم ولكن هو الاستخفاف ينزل بصاحبهِ الى حيث لا يجمل

واما الاجادة في اسوار القصيدة وهي بيت المطلع وبيت التخلص وبيت الختام فكفى بها رفعة انهم قالوا اذا اجاد الشاعر في المطلع والتخلص والختام فقد سلمت قصيدتهُ من نظر النقاد. اما براعة الاستهلال فلما وراءها من اجتذاب القلوب واقبال النفوس بلذةٍ وشوق . واما براعة التخلص فلما فيها من الدلالة على ترتيب المعاني واحكام ربطها وحسن تعلق بعضها ببعض بحيث لو وقف الشاعر عن المعنى التخلص اليهِ لاستطاع السامع اللبيب ان يعرفهُ وتلك مزية بينة واما براعة الختام فلأن حسنها اشبه شيء بانتهاء المسافر الى بلدهِ وسروره بمشاهدة اهلهِ على افضل ما يريد لهم . ومن لم يحسن الختام فكمن يطعم الفاكهة قبل النضج . وقصارى القول ان من طلبت نفسهُ الجلوس على كرسي القضاء بين الشعراء فلا بد ان يأخذ شعر كلٍّ منهم ويجمع عالم من الاجادات في ابواب الشعر فمن كانت اجاداتهُ اكثر ولم يخرج بهِ ضيق الذرع بالكلم عن الاليقة اللغوية الى المكروه من الجوازات الشعرية وتوفرت لهُ كل تلك الوجوه كان هو الاشعر واما من ساواهُ في الاجادة ولكنهُ لم يحظ الاّ في بعض ابواب الشعر وعلى بعض الابحر فلا يعدّ في طبقتهِ . على ان من قصّد القصائد في جميع الابواب واطال ولكن كانت اساليبهُ كالوجوه المتعرقة ومعانيهِ كالاوار الضعيفة وقوافيهِ قلقةً لا ينتظر مثلها من يقرأ صدر البيت واضطرّهُ القصور الى استعمال الجوازات المستهجنة فيقدّم عليهِ صاحب قصيدةٍ واحدة غرّاء كقصيدة السموأل في الفخر وقصيدة بشر بن عوانة التي يصف بها قتالهُ للاسد وقصيدة ابن الانباري في الوزير الطاهر بن بقيّة بن يقدّم عليهِ صاحب بيتٍ واحد من مثل هذا المطلع البديع

شابتْ لمَّةُ الشَّب لاحامٍ ولا راعِ مضى الردى بطويل الرمح والباعِ

واما طول القصيدة فيستلزم بسطة فكر وقوّة على التفنن في المعاني واستيفائها بجميع اطرافها وبغزارة مادّة من اللغة . ومن لم يعجز عن نظم القصائد الطويلة فهو بلا مراء دون من يقدر عليهِ

فليست القصيدة المؤلفة من مائة بيت او من مائتي بيت كقصيدة مؤلفة من خمسة عشر او عشرين بيتاً تتلك لا تخرج الاَّ من قريحة سيَّالة وفكرة متوقدة وحافظة قوية تكسوها الفكر الحلل وتمدّها بالفاظ تواجه المعاني وقوافٍ تراها راسخةً في اواخر الابيات رسوخ الاطواد

على اني لا اقصد بهذا ان ادعو الشعراء الى الاطالة في القصائد فلكل مقام مقال والكلام كلهُ منظومهُ ومنثورهُ يطوَّل و يقصَّر على حكم مقتضى الحال وانما اردت ان أُثبت مزيَّةً لمن ينظم مائة بيت او ما فوق ذلك على رويٍّ واحدٍ وبحرٍ واحدٍ ويجعلها خدوراً لبدائع المعاني فهو ولا مشاحَّة اغزر مادَّة واقوى فطرةً ممن ينظم القصائد القصار ولا قبل لهُ بنظم الطوال

ولما التقارب في الطبقة فثمَّ كان مجال المفاضلة وداعي الموازنة فحينئذٍ الاَّ على اهل الخبرة يجيد الشعر ورديئهِ ولا تفاضل بين من شعرهُ في الاوج ومن شعرهُ في الحضيض فان ذلك مما هو معلوم عند اهل الذوق لا يجهلهُ الاَّ من يجهل ان السيف امضى من العصا والدرّ اغلى من الخرز

واما الحكم بأنَّ فلاناً اشعر من فلانٍ قبل ان ينقضي من الوقت ما يكفي للموازنة بينهما على الاعتبارات والوجوه التي ذكرت فهو حكم قابل للنقض ولو حكم بهِ ائمة الكون كلهم اجمعون

هذا واني قد عزمت ان اجمع في هذه المقالة ما لكلٍّ من حبيب الطائي وابي عبادة البحتري وابي الطيّب المتنبي من الابيات في المعاني التي تعاوروها كالمدح بالجود والشجاعة ابتغاء ان اضع نصب عين المطالع كلَّ او جلَّ ما جاء بهِ كلٌّ منهم من الاساليب في ايراد ذلك المعنى وهو افيد درس لطلاَّب القريض

سعيد الخوري الشرتوني

العصر العباسي

نشرت اولاً في المقطم في ٨ يناير عند جلوس الجناب الخديوي

استقبل اهالي القطر هذا العيد السعيد بالبشر والايناس وهم جديرون بذلك لان الخمس عشرة سنة التي مضت منذ تولى سمو الخديوي المعظم عباس الثاني اريكة الخديوية المصرية كانت اعوام خير ونعم عمت القطر المصري واشترك فيها القطر السوداني

ان خمس عشرة سنة ليست بالزمن الطويل في حياة الامم والممالك وقد تمرُّ ولا يتغير في غضونها حال البلاد تغيراً يشعر بهِ بل قد يمرُّ القرن والقرنان والامم على حالها من حيث مقامها السياسي والمعاشي والاجتماعي ولكن الخمس عشرة سنة التي مرت على القطر المصري من حين